

## تكافؤ الفرصة

بين الجد والهزل

سيدي الدكتور

أما الجد فقد فرغنا له ثلاث سنين ، وفرغنا منه في سنة ١٩٤٤ — وأما الهزل فقد بدأ في سنة ١٩٤٥ . ولكل من الجد والهزل مقياس . والمقياس لغة هو القانون . فاذا أردت أن تعرف حد الهزل في « تكافؤ الفرصة » وجب أن ترجع إلى رجال القانون الذين يتولون شؤون التربية والتعليم ، فقد قالوا « إن الهزل ضد الجد . والمراد به أن ينطق الإنسان بالعبارة راضياً مختاراً . لكنه لا يريد معناها الحقيقي ولا المجازي ، بل يصدر عنه الكلام لعباً محضاً لا يقصد به أي معنى » . ولا أكتمك يا سيدي الدكتور أنني تشاءمت بعبارة « تكافؤ الفرصة » عندما اهتدينا إليها في سنة ١٩٤٣ . فن الألفاظ ما يجبر الشؤم على المعاني ، ومنها ما يجبر الفأل والبركة . وكان خليقاً بنا أن نتطير من هذين اللفظين وبخاصة لفظ « التكافؤ » ؛ فقد جرى به قلم محكمة النقض والإبرام سنة ١٩٣٤ . جرى به هذا القلم في معرض المهاترة والسب والقذف ، فقررت المحكمة العليا أن القذف والسب المتبادلين لا يقتضيان التعويض لما بين القاذفين من تكافؤ في السيئات . ولذلك قلت إنني تشاءمت بهذا اللفظ . وها أنت ترى أن مبدأ تكافؤ الفرصة أصبح سيئة من السيئات كما قررت المحكمة العليا . وقد أدركت الآن أن تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً صحيحاً يدك نظام المجتمع المصري ؛ لأن تعليم الفقراء يفقر الأغنياء ، وفقر الأغنياء داهية دهية . ولا يخفى عليك يا سيدي الدكتور أن المتعلمين هم زينة المجتمع . ومن الخطأ البين أن نحاول تعليم الشعب كله فيصبح الشعب كله زينة . وإخلاك لا تجهل أن « أمراض الزينة » عند الأطباء من الأمراض الملعونة . ومن عجب يا سيدي الدكتور أنك تخطب وتكتب ، ولكنك لا تعلم حقيقة ما تكتب ولا تدرك معنى ما تقول . أنت من أضعف خلق الله ، ولكن الله وضع فيك سرّاً . وقد رأينا من ضعاف الناس من

تجربى على ألسنتهم أسرار الغيب ، وهم لا يعلمون أنهم يتكلمون بما وراء العيب وإن كلامهم — كما يقول الصوفية — مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق . وقد تعودت أن أرجع إلى مواضع « طلب المعانى » فى « مدارك » الصوفية لأدرك معنى أقوالك ، وما يجرى الغيب على لسانك . من ذلك أنى قرأت لك مقالا فى إحدى المجلات فى عام ١٩٤١ عن مستقبل الديموقراطية بعد الحرب . كان لك فيه آمال و تمنيات ؛ من أمثال تكافؤ الفرصة ونشر التعليم ، ثم ختمت مقالك ببيت من الشعر :

منى أن تكن حقًا تكن أحسن المنى

وإلاّ فقد عشنا بها زمنًا رغدا

فلما رجعت إلى كتب الصوفية وبخاصة أقوال نجم العرفان المسندة إلى قطب الواصلين ، وجدت أنهم عقدوا لهذا البيت باباً بل أبواباً بعنوان « الأمانى الكاذبة ومضارها » . ولم يقتصر كلامهم فى هذه الأبواب على الأمانى الكاذبة فى العلم والتعليم بل تناول كذلك الأمانى الكاذبة فى الغذاء والكساء . ثم قالوا فى أمثالك يا سيدى الدكتور إنكم « مغرمون بوصال صورة وهمية خيالية . مثلكم مثل الجائع والعمارى يصور فى وهمه صورة الغذاء والكساء وهو لا يأكل ولا يلبس » . وقد أنحوا عليكم بالأئمة واعتبروكم مجانين . وأنت تعلم يا سيدى الدكتور أن المجنون شر من الأمى . وقد وصفك بعض كتاب الدنيا بأنك أمى فاحمد إليهم الله ، الذى لا يحمد على مكروه سواه . أمّا سند الصوفية فى أنك مجنون ، فهو قولهم « العقل لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوشه ما بين غرور وأمانى باطلة وسراب لا حقيقة له » . ولذلك ينبغى لك يا سيدى الدكتور أن تحذر شؤم هذا البيت من الشعر ، كما ينبغى لى ولك أن تحذر من شؤم تكافؤ الفرصة .

وأولى بى وبك بل أولى بمصر كلها أن تتمثل بقول الشاعر :

أمنية ظفرت نفسى بها زمنًا

واليوم أحسبها أضغاث أحلام

## تكافؤ الفرصة

لقد طبقنا « تكافؤ الفرصة » كما أمر عمر بن الخطاب حين قال « آس بين الناس » ولكننا حفظنا شيئاً وغابت عنا أشياء... غاب عنا أن المحبة الصادقة للعلم تمنع قبول المشاركة في المحبوب. فلا ينبغي للعلماء إن كانوا صادقين في محبتهم للعلم أن يسهلوا للجهلاء سبيل مشاركتهم فيه. وبهذا وحده يمكنك يا سيدي الدكتور أن تعلق محاربة من تعلموا بالمجان للفقراء من طلاب العلم. وحقيقة الحال أنه لا يمكن تعليل ذلك إلاّ بصدق المحبة للعلم وعدم قبول المشاركة في المحبوب. وغاب عنا أن الشر إذا كان مشتركاً يصبح خيراً. وأن الأمانى أوفر حظاً في اللذة من تحقيقها. ولم يكن ينبغي أن يغيب ذلك عنك. فأنت تزعم أنك أديب الشرق، ومع ذلك لا تذكر قول الأصمعي « تمنيك الشئ أوفر حظاً في اللذة من قدرتك عليه ». وقد أدرك شانتوك هذا الذي غاب عنك... فتكافؤ الفرصة وهو أمنية، أوفر حظاً في اللذة من تكافؤ الفرصة بالفعل. وقد حسبت أن الدنيا كلها معك حين بشرت بهذا المبدأ، وغاب عنك أنك شيطان وأنّ الباطل كله يتحيز مع الشيطان. وكذلك حسبت أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء كما يقول المسلمون. ولهذا عاونت الفقراء، راجياً أن تسبق إليها معهم. وغاب عنك أيها المفتون أنهم إنما يدخلون الجنة قبل الأغنياء لأنهم يموتون قبلهم.

وقد وفق الله للخلاص منك على طريقة الصوفية تماماً؛ فقد فطن الصوفية لشأن التربية من زمن طويل، وجاء في كتاب الإبريز أن الإصلاح لا يمكن أن يتم إلاّ على يد « شيخ التربية ». وأنّ المقصود من التربية هو « تصفية ذاتك، وتطهيرها من رجوناتك ». وأوجبوا على المريدين والذين يلون « شيخ التربية » من المريين ألا يرضوا سوى شيخهم، وأن يدوروا معه حينئذ دار، وإن بعد « شيخ التربية » في الظاهر عن الحق بعداً بيناً. ذلك لأنه قد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن، فيجب أن يسلم إلى الشيخ وأن ينقاد إليه كل من له عقل سليم وطبع مستقيم.

وتسألني لماذا لم أعهد في الإصلاح إلى « شيخ التربية » على طريقة الصوفية؟ فأجيب: وما أنسانيه إلاّ الشيطان؛ فقد زين لي قراءة كتب الحيوان، وحالها على عهد سليمان. ثم قرأت في هذه الكتب أن « شمس المعالي » أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان قال في القنفذ: « يتحير المعبر في آياته، ويكبل النظر في

معجزاته ، وهو محارب حصنه من نفسه ومقاتل رماحه على ظهره ، وأنه إذا نام عنه الناس لم ييم .

وكذلك جاء في كتب الحيوان أن القنفذ كان من مستشارى سليمان الحكيم . وقد تعلم أو لا تعلم يا سيدى الدكتور أنك قنفذ من الطبقة الأولى ، محارب حصنك من نفسك ، ومقاتل رماحك على ظهرك ، لا تنام ولو نام عنك الناس . وقد كان القنفذ مستشاراً لسليمان الحكيم كما قال « شمس المعالى » ، فلماذا لا يكون مستشاراً لصاحب المعالى .

ولتذكر يا سيدى الدكتور أن القنفذ كان أعلم الناس على عهد سليمان ، كما أنك أعلم الناس فى هذا الزمان .

وقد رأيتك ضائق الصدر بنفر ممن أحسنت إليهم فأساءوا إليك وتمجنوا عليك . ثم قال رجل طويل اللسان إنهم « كلاب » يلهون مع اللاهين ، ويسهون مع الساهين ، ويميلون مع المبطلين . لكنك يا سيدى الدكتور غضبت « للكلاب » فلم أفهم سر غضبك . فلما رجعت إلى قنفذ سليمان وجدت أن هذا المستشار الأول غضب « للكلاب » أيضاً .

وفى هذا يقول الرواة أن سليمان عليه السلام أرسل إلى مستشاره القنفذ الفرس والبازى يدعوانه فلم يجبهما ، ثم أرسل إليه الكلب فأجابه وجاء به . فقال له سليمان لم لا تجيب الفرس والبازى ؟ قال لأنهما خائنان ؛ إذ الفرس يعدو بالعدو كما يعدو بصاحبه ، والبازى يطبع غير صاحبه . وأما الكلب فإنه ذو وفاء حتى لو طرده صاحبه عاد إليه ثانياً

ويزعم الزاعمون يا سيدى أنهم يستقلون ما عملنا . فأذكر أن نقرأ من الصحابة جاء إلى دار النبى عليه الصلاة والسلام فسألوا أزواجه عن عبادته وقيامه وصيامه ، فذكرن لهم عبادته فاستقلوها . ثم قالوا : لسنا كالنبى فإنه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر كله ، وقال الآخر : أمّا أنا فأقوم الليل كله .

وهكذا بلا تشبيه ولا تمثيل حالك وحال أمثالك فى هذه الأمة المجنونة التى نعلمن أنها تثق بفلان وفلان فى الحال والاستقبال ، وأنها تغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر .

أمّا أولئك النفر من أصحابك فإنهم قوم لا تثق بهم الأمة ، لا فى الحال

ولا في الاستقبال ، ولم تغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تأخر . فلا تعجب إن هم استقلوا جهودي وجهودك ، ثم قالوا كما قلنا إن العلم كالهواء والماء ، ولعلمهم قالوا كالغذاء والكساء .

ولكنك تهزأ بهذا القول وتسخر منه ، وتؤكد أنهم إلى الآن لم يعملوا شيئاً . فاذكر ياسيدي الدكتور أن « شيخ التربية » الصوفي قد قال ذات مرة للمريدين : « إنني أخاف من كل فعل لأنه قد يكون سبباً لهلاكى . فإذا أردت أن أخطو خطوة رفعت رجلى فارتعدت في الهواء ، ثم رددتها فارتعدت ، ثم أعدتها إلى ناحية الخطوة فارتعدت ، وهكذا لا أكمل الخطوة حتى يقول من يرانى ما به إلا الجنون . وما يزال الواحد منكم على الطريق حتى يصل إلى هذه المرتبة » .

\* \* \*

ولو أنطقنا « تكافؤ الفرصة » بلسان الحال لقال « رضيت من الغنيمة بالأياب » . وهو مثل في الخيبة يضرب عند القناعة بالسلامة لمن سعى إلى شيء فلم ينله غير أنه لم يعطب . وأؤكد لك ياسيدي الدكتور أن « تكافؤ الفرصة » لم يعطب وإن خاب إلى حين .  
ودليل ذلك أنه محمود بكل لسان ، سواء في ذلك الملاك والشیطان ..

احمد نجيب الزهراءى